(١) الحارث بن أسد المحاسبى
(١٦٥ - ٢٤٣هـ = ٧٨١ - ٨٥٧م)

الذى تميزت مسيرته الفكرية والروحية عندما جمعت بين علم الأصول.. والنزعة السلفية.. والكلام.. والتفلسف.. والفقه.. والتصوف.. فجعلت لكلامه عن العقل والعقلانية شمولاً.. ومذاقًا خاصًّا..

لقد ولد الحارث بالبصرة .. ومات ببغداد .. وكان واحداً من كبار الزهاد والمتصوفة فى عصره.. كما كان واعظًا مبكيًا لسامعيه.

ومع انتصاره للعقل والعقلانية - حتى لقد خص العقل بالتأليف فيه - فلقد كان ناقداً للمعتزلة - فى عصر علا فيه شأن المعتزلة وسلطانهم - كما خالف الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] الذى كان زعيم السلفية، وأكبر خصوم الاعتزال..

ولقد كان الحارث - مع كل هذا - أستاذاً لجمهرة علماء

بغداد فى ذلك العصر الذى كانت فيه بغداد حاضرة العلم والعلماء فى الدنيا كلها، بتعميم وإطلاق..

ومن الآثار الفكرية التى بقيت لنا من إبداعات الحارث المحاسبى - غير كتابه عن [مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه] - كتب ورسائل :

١ - [آداب النفوس].

٢ - [شرح المعرفة].

٣ - [المسائل فى أعمال القلوب والجوارح].

٤ - [المسائل فى الزهد وغيره].

٥ - [البعث والنشور].

٦ - [الرعاية لحقوق الله عز وجل].

* * *

نصوص فى مقام العقل
عند الحارث المحاسبى

عونك اللهم

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبى البصرى رحمة الله عليه :

باب ماهية العقل وحقيقة معناه(١).

سألت : عن العقل ما هو ؟

وإنى أرجع إليك فى اللغة، والمعقول من الكتاب والسنة، وتراجع العلماء (فيما) بينهم بالتسمية، ثلاثة (معانى) :

أحدها : هو معناه، لا معنى له غيره فى الحقيقة.

---

(١) لقد اعتمدنا النص كما حققه الأستاذ حسين القوتلى – انظر كتابه [العقل وفهم القرآن] ص ٢٠١ – ٢٣٨ طبعة بيروت – دار الكندى ودار الفكر – الطبعة الثانية – سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م .. ولقد تخففنا من الهوامش التى لا ضرورة لها.

والآخران اسمان جَوَّزَتْهُما العربُ إذ كانا عنه فعْلاً، لا يكونان إلا به ومنه، وقد سَمّاها الله تعالى في كتابه وسمَّتْها العُلَماءُ عَقْلاً.

فأمَّا ما هو في المعنى في الحقيقة لا غيره: **فهو غريزةٌ وضَعَهَا الله سبحانَهُ في أكثرِ خَلْقِهِ لم يَطَّلِع عليها العبادُ بعضُهم من بعض، ولا اطّلعوا عليها من أنفسهم برؤْيةٍ، ولا بحسٍّ، ولا ذوقٍ، ولا طَعْمٍ. وإنما عرَّفهم الله (إياها) بالعقل منه.**

فبذلك العقل عرفوهُ، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعُهُمْ ومعرفة ما يَضُرُّهُمْ.

فَمَنْ عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه، عرف أن الله تعالى قد منَّ عليه. بالعقل الذي سلبَ أهل الجنون وأهل التيه، وسلب أكْثَرَهُ الحمقى، الذين قَلَّتْ عقُولُهُمْ.

وكذلك معرفُة بعضِهم من بعض بظاهرِ فِعْلِ الجوارح.

فيُستدل أنه عاقل له عقل إذا رأَوْا من أفعاله ما يَدُلُّهمْ أنه قد عَرَف ما ينفعُهُ من دنياهُ وما يضُرُّهُ؛ إذا رأَوْهُ طالبًا عاملاً

ما ينفعُهُ من دُنياهُ مُجانبًا لما يَضُرُّهُ من دنياه. فسموا من كان كذلك عاقلاً وشهدوا أنَّ له عقلاً وأنه لا مجنون، ولا تايه ولا أحمق.

فإنْ رأَوْهُ بخلاف ذلك شَهِدُوا أنه مجنونٌ قد (تغشّا) عَقْلَهُ من الآفةِ ما أذْهَلَهُ، وأزالَ معرفَتَهُ بمنافعه وَمَضَارِّه.

فإن رَأَوهُ يتبعُ منافِعَهُ، ويُجانبُ مضارَّهُ، وفى كثيرٍ من أفعاله يعملُ بخلافِ ذلك سَمَّوْهُ على قَدْرِ الْكَثْرة بخلافِ ما يفعلُ الْعاقلونَ أَو لقلته أحمقَ أو مائقًا[1].

فإنْ كان له وقتٌ تَزُولُ أفعال الْعقل عنه بِصَعْقٍ، أو تقلُّبٍ للأُمور فى القول والفعل سَمَّوهُ مجنونًا فى ذلك الوقت، عاقلاً إذا أفاق، وتجلى ذلك عنه، وعاد لهيئتِهِ الأُولى، من أن تَظْهَرَ منه أفعالُ الْعقل واللبِّ بأسباب ذلك.

إذا سئل أجاب بما يُعقل. ويطلب منافعَهُ ويجتنب مَضَارَّهُ. وربما تعرض لما يضره فى العواقب، وذلك نافعٌ له فى العاجل، ضارٌّ له فى الآخرة، فَيُسَمّى عاقلاً. يعنون أن له **الغريزة التى هى ضد**

---

(١) المائق: الهالك حمقًا وغباوة.

الحمق والجنون، وأنه قد نقص عقله للعاقبة بقدر ما تعرض لما ينفعه في العاجل بما يضره في العاقبة.

فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتَحَنين من عباده، أقام به على البالغين للحلم الحُجَّةَ. وإيَّاهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعَّد، وأمر ونهى، وحضَّ وندب. فهو غريزةٌ لا يعْرَفُ إلا بفعاله في القلب والجوارح. لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أن يَصِفَهُ في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله.

لا يقدر أن يصفه بجسمية، ولا بطول، ولا بعرض، ولا طعم، ولا شم، ولا مجسة، ولا لون، ولا يُعْرَفُ إلا بأفعاله. وقال قومٌ من المتكلمين: هو صفوةُ الروح، أي خالص الروح.

واحتجوا باللغة فقالوا: لُبُّ كل شيء خالصُه. فمن أجل ذلك سُمِّيَ العقل لُبًّا. وقال الله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩] **يعني أولي العقول.**

ولا نقول ذلك إذا لم نجد فيه كتابًا مسطورًا، ولا حديثًا مأثورًا.

وقال قوم: هو نورٌ وضعه الله طَبعًا وغريزةً، يُبْصَرُ به، ويُعبَّرُ به.

نورٌ فى القلب كالنور فى العين، وهو البصر.

فالعقل نور فى القلب، والبصر نور فى العين.

فالعقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالّة على المعقول.

وقد زعم قومٌ أن العقل معرفةٌ نظمها الله ووضعها فى عباده يزيدُ ويَتَّسِع بالعلم المُكتَسبِ الدَّالِّ على المنافع والمضَارِّ.

والذى هو عندنا **أنه غريزة، والمعرفة عنه تكون.**

وكذلك الجنون والحمق لا يُسَمى نكرة لأنه لو كان المعرفة هو العقل، سُمِّيَ الجنون نكرة، والحمق نكرة، لأن النكرة ضد المعرفة، والجهل ضد العلم.

فلما امتنع أهل العلم أن يسموا المجنون منكرًا جاهلاً، ولا يسمون المنكر مجنونًا، والجاهل مجنونًا، وقالوا بأنه مجنون، صَحَّ ما قُلْناهُ.

ومِمَّا يدل على أن العقل هو الغريزة التى (بها) عَرَفَ فَأَقَرَّ، وعَرَفَ فأنكر، أو ظَنَّ فأنكر، لأن الإنكار فعل، فكذلك ضد المعرفة فعل.

فمنه فعل عن طبع يوجبه الطبع (كالضرة)[1]؛ كمعرفة الرجل نفسَهُ، وأباه، وأُمَّه، والسماءَ، والأرضَ، وجميعَ الأشياء التي تُشَاهَدُ.

ولولا الاستدلال بالعلم الذى سمعه من أسماءِ الأشياء ثم رأى الأشياء، لعرفها برؤْيا ولم يعرِفها باسم ولا تفصيل بين معانيها.

أوَ لم تستمعْ إلى ما وصف الله تعالى ملائكته؛ إذ سألَهُمْ أن يُخْبِرُوهُ بأسماءِ الأشياءِ فقالوا: لا علم لنا. فأمر آدمَ عليه السلام فأخبرهم[2] بها لأنه عَلَّمَهُ الأشياء؟

فلم يعرف عاقل أسماء الأشياء إلا بالتعليم منذ هو طفل لما يسمع ويرى. عرف بعقله الأشياء، وفَصَلَ بين معانيها.

فكُلُّ بالغٍ من الجِنِّ والإنس من الذكورِ والإناثِ ممن أمره الله تعالى ونهاهُ ووعده وتوعَّدَهُ بإرسال النذُر، وإنزالِ الكُتُب،

---

(١) يقصد الضرورة. يعنى أن هذه المعرفة تأتى نتيجة ضرورية لكون العقل غريزة.

(٢) يريد الإشارة إلى الآية ٤٣ من سورة البقرة.

وآثارِ آياتِ التدبير، فحُجَّةُ العقل لازمةٌ له، إذ أنعم الله سبحانه بالعقل عليه، ومعرفة البيان ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]

أَوَ لا تراهُ يقولُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ يعنى بيَّنا لهم ما (يعقلوه) بعقولهم إن تدَبَّرُوا ذلك. فقال عز وجل: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

فإنما خاطب الله العباد منْ قبل أَلْبَابِهِمْ، واحتجَّ عليهم بما رَكَّبَ فيهم من عقولهم؛ وما الله بِظَلامٍ للعبيد.

ومع هذا فإنه قد يخص بالتنبيه والتوفيق مَنْ يشاءُ من عباده، ويختصُّ بجواره مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِه.

إلا أَنَّ أَبْيَنَ الأَشياءِ هذه قبل الجهر باللسان. فإنه قال عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وهذا قبل أن يَخْبُرَهُ.

وقال خالد بن صفوان[1]: لولا التبيان لكان المرء بهيمة مهمَلة أو صورةٌ ممثَّلة.

وقال الشاعر:

وفي الصمت ستر العيِّ يومًا وإنما

صحيفة لُبِّ المرء أنْ يتكلَّما

وأما الاثنتان اللتان جَوَّزَتْهُما اللُّغَةُ في الكتاب، والسنة، وتَراجُعِ أَهْلِ المعْرِفَةِ، فيما بينهم بالتسمية فجَوَّزَتْهُما اللُّغَةُ على حقيقةِ المعنى بأنْ سَمَّتْهُما عقلاً، إذ كانا عن العقل لا عَنْ غيرِه.

فإحْداهُما: الفهمُ لإصابةِ المعنى؛ وهو البيان لكل ما سَمِعَ من الدنيا والدين أَو مَسَّ أَو ذاق، أَو شَمَّ؛ فسمَّاهُ الخَلْقُ عقلاً، وسمَّوا فاعِلَهُ عاقلاً.

وقد رُوي في التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] قيل: اعقِلْ ما أقول لك.

---

(١) أحد خطباء العرب وبلغائهم المعروفين. له أخبار مع هشام ابن عبدالملك وأبي العباس السفاح.

وهذه خصلةٌ يشتركُ فيها أَهلُ غريزةِ العقل التى خلقها الله فيهم، من أَهل الهدى، وأَهل الضلالة، من بعض أهل الكتاب لِما تقدَّمَ عندهم من أَهل الدين.

ويجتمعُ عليها أَهْلُ كُلِّ إِيمانٍ وضلالٍ فى أُمور الدنيا خاصةً، والمطيع والعاصى، وهو فَهْمُ البيان .

وقال الله عز وجل فى ما يَعيبُ به أَهْلَ الكتاب، فقال: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥]

وقال عز وجَل: ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦]

وقال: ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

وقال: ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]

فالفهم والبيان يُسَمَّى عقلاً لأنه عن العقل كان

فيقول الرجل للرجل :

أَعقَلْتَ ما رأَيتَ أَو سمعت؟

فيقول نعم. يَعنى أنى قد فهمْتُ وتبَيَّنْتُ.

والعرب إنما سَمَّتِ الفَهْمَ عقلاً لأنَّ ما فهمتَه فقَد قَيَّدْتَهُ بعَقْلِكَ وضَبطْتَهُ كما البَعيرُ قد عُقِلَ. (أى) أنك قد قيَّدت ساقه إلى فَخِذَيه.

وقالوا: اعتقل لسان فلان، أى استمسك.

ويقال اعقل شاتك إذا (حبستَها). وهو أن يضع (رجلَه) بين (نوفها) وفخذ (ها)، و(يقال): اعتقل رجل فلانًا إذا (صارعه).

والمعنى الثالث: هو البصيرة، والمعرفة. بتعظيم قَدْرِ الأشياء النافعة والضارة فى الدنيا والآخرة. ومنه العَقْلُ عن الله تعالى.

فمن ذلك أن تَعْظُمَ معرفتُهُ وبصيرتُهُ بعظيمِ قَدْرِ الله تعالى وبقَدْرِ نعَمِه وإحْسانه، وبعَظيمِ قَدْرِ ثوابه وعِقَابه ليَنَالَ به النَّجَاةَ من العِقَاب، وَالظَّفَرَ بالثَّواب.

فإذا كان لله مُعَظِّمًا، كان لله مُجلاًّ هايبًا، وإذا كانَ لله مُجلاًّ هايبًا كان منه مُسْتَحيًا، وإلى طاعته مُسَارِعًا، ولمساخطه مُجانبًا.

وإذا كان مُعَظِّمًا لما يَنالُ به النَّجاةَ من العِقَابِ والظَّفَرَ

بالثَّواب عُنِيَ بطَلَبِ العِلْمِ، ورغِبَ فى الفَهْمِ. وَالْعَقْلُ عن الله عزَّ وجَلَّ أَكْثَرُ همَّتِه.

وإذا عُنِيَ بطلب العلم بذلك استَدَلَّ به على عِظَمِ قدْرِ المولى وقدْرِ ثوابِه وعقابه. وإذا استدلَّ على ذلك أَبْصَرَ وفَهِمَ حَقَائِقَ معانى البيان. فإذا فَهِمَ عَقَلَ عظيمَ قَدْرِ الله تعالى وعرْضَه على الله – سبحانه – وعقابَه وثَوابَهُ.

وإذا عَظَّمَ قَدْر ذلك هابَ الله، وفَرِقَ ورَجَا، ورغب واشتاقَ، فكأَنَّما يُعاينُ ذَلك كرأى العَيْنِ، فكان عن الله تعالى عاقلاً، وسُمِّىَ ذلك منه عقلاً، إذ كان بالعقل طَلَبَ ذلك، وبالعقلِ فَهِمَ ذلك، وبالعقل لَزِمَ ذَلك، وبالعقلِ جَانَبَ ما يزيله عن ذلك.

فهذا الذى عَقَلَ عن رَبِّه.

أَلَم تسمعه عَزَّ وجَلَّ يقولُ: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]؟ **قال: أُذُنٌ عَقَلَتْ عن الله تعالى. يعنى عَقَلَ عن الله ما سَمِعَتْ أُذُنَاهُ، مما قال وأَخبر.**

فهذا هُوَ العَقْلُ.

ومَن زال عن ذلك ومعه غريزةُ العقل التى فَرَّقَ الله تعالى بها

بين العقلاء والمجانين فهو غيرُ عاقلٍ عن الله عَزَّ وجَلَّ. وهو عاقلٌ للبيانِ الذى لَزِمتْهُ من أَجلِه الحُجَّةُ.

وقد وصف الله عزَّ وجل هذا فى كتابه عن رجال (وسمَّا) لهم عقلاً. فقال تعالى: ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ [الحج: ٤٦] يعنى عنه.

وقال عز وجل: ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً** ﴾. يعنى عقولاً، ﴿ **فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. ثم سَمَّى بعضَ الكُفَّارِ مِنْ أَهلِ الكتاب عاقلاً للبيان الذى لَزِمتْهُمْ به الحُجَّةُ ﴿ **يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٥].

فأخبر أنهم لا يعقلون، يعنى عنه (وعن) ما قال من عظيم قدره المبيّن عنه.

ثم قال: ﴿ **يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ يعنى: عَقْلَ البيان.

وآخرون لهم عقولُ الغرايز لا يعقلون البيان ولا المبين عنه بالفهم له إلا أَنهم يسمعون بلُغَةٍ يعرفونها كلامًا لا يعقلون معانيه

بالفهم له كمشركي العرب فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

فلم يَعْقِلُوا ما قال عَزَّ وجَلَّ لإعجابِهِمْ برأيهم، ولتقليدِهِمْ آباءَهُمْ، وكُبَرَاءَهُمْ، وقد كانت لهم عقولُ غرايز، يعقلون بها أمر دنياهم.

ولو تركوا الإعجابَ بالرأى، وتقليدَ الكُبَرَاءِ ثُمَّ تَدبَّروا لَعَقَلُوا ما قال الله. ولكن أُعجبوا بآرائهِمْ، وَقَلَّدُوا كُبَرَاءَهُمْ. فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

[الكهف: ١٠٤]

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾

[فاطر: ٨]

وقال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

[المجادلة: ١٨]

فلم يعقلوا ما قيل لهم كما عَقَلَهُ المُحَرِّفُونَ للسان بعدما عقلوه فهم يعلمونَ أَمْرَ دنياهم.

ودقايقُ معايشِهِمْ أَدَقُّ فى الغموضِ من أَعلامِ الدين. فقال

الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قال: حدثني عفان[١]، قال: حدثنا صخر بن جويرية[٢] عن الحَسن[٣] في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا جَرَمَ والله لقد بَلَغَ من علم أحدهِمْ بدُنياهُ أنه يَقْلِبُ الدرهَمَ على ظفْرِهِ ويُخْبِرُكَ بوَزْنِه، وما يُحْسِنُ يُصَلِّي.

قال: حدَّثني عَفَّان قال: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ[٤] عن شَرقِيٍّ[٥] في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فذكرَ الخرّاز والخَيَّاطَ ونحوَهما، فأخبر الله تعالى أنهم يعقلون أمر دنياهم. ولو تدبَّروا وتركوا التقليدَ والإعجابَ بالآراءِ لعقلوا أمْرَ آخرَتِهِمْ كما عقلوا أمر دنياهم، حين عُنُوا بطلبِ مَنافِعِها في العواقِبِ ودفع مَضارها في العواقِبِ.

---

(١) عفان بن مسلم الصفار (١٣٤ - ٢٢٠ هـ من شيوخ المحاسبي).
(٢) أبو نافع صخر بن جويرية، مولى بني تميم.
(٣) هو الحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ).
(٤) شعبة بن الحجاج (٨٢ - ١٦٠هـ) الأزدي البصري.
(٥) شرقي بن قطامي: أخباري.

فهذه أربعُ فِرَقٍ:

فرقةٌ عقلت عن الله تعالى عِظَمَ قَدْرِهِ وقدرَته وما وعد وتوعَّد، **فأطاعت، وخَشَعَتْ**.

وفرقةٌ عَقَلَت البيانَ ثم جَحَدَت كِبْرًا وعِنادًا لطلب الدنيا كما وصف عن إبليس أنه تَكَبَّر وعاندَ كِبْرًا، وهو مع ذلك يقول: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص: ٨٢]. ووصف اليهود فقال: ﴿**لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤]

وقال: ﴿**يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنعام: ١١٤]

وقال: ﴿**وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وفرقةٌ طغت، وأُعجبت، وقلّدت، فعميت عن الحق أَنْ تَتَبَيَّنَهُ ثمَّ تقربه، ثم تجحده كِبْرًا وطَلَبَ دُنْيا بعد عقلها للبيان فظنَّتْ أنَّها على حَقٍّ ودينٍ وهي على باطلٍ وشرٍّ وضَلالٍ.

وفرقةٌ رابعةٌ عَقَلَتْ قَدْرَ الله عَزَّ وجَلَّ فى تدبيره وتفرُّده. بالصنع، وعرفت قَدْرَ الإيمانِ فى النجاة بالتمسك به، وقَدْرَ العقاب فى ضَرَرِهِ فى مُجانبة الإيمان، فلم يجحدوا كِبْراً ولا أَنفةً ولا طَلَبَ دنيا لعقلها أَنَّ عاجلَ الدنيا يفنى، وعذاب الآخرة لا يفنى. فَأَقَرَّتْ وآمَنَتْ، ولم تعقل عظيم قدر الله فى هيبته وجلاله، وعظيم قدر ثوابه وعقابه فى إتيان معاصيه، والقيام بفرايضة، فعصَتْ، وضيَّعَتْ، وغَفَلَتْ، ونسيَتْ، إلا أَنَّها عَلِمَتْ عظيمَ قَدْرِ الإيمان فى النجاة، وعظيمَ ضررِ الكُفْر؛ قد عقلتْهُ عن الله تعالى فهى قائمةٌ به، دائمةٌ عليه.

ثم بعد عقله قَدْرِ الإيمان يزدادُ معرفةً بقدْرِ الغَضَبِ والوعيد والوعد.

فإن ازدادَ طائفةٌ قام بطائفةٍ من الفروض، وترك بعضَ المعاصى، وإلاَّ ضيَّعَ بعض الفروض، وركب بعضَ المعاصى من أَجل الهوى، ومعه عقل البيان والإقرار، فعقل أنه مُسىء، ولم يرجع عن إساءته لِغَلَبَةِ الهوى.

ولو ازداد عقلاً بعظيم قدر الغضب، والرضى، والثواب، والعقاب، لاستعمل ما عقل من البيان، وَأَقَرَّ به بأَنَّه حقٌّ فتاب وأناب.

وجميعُ الممتحنَين المأمورينَ من العُقَلاءِ البالغينَ كُلّهُم لهم عُقولٌ يُمَيِّزونَ بها أُمور الدنيا كُلَّها، الجليل، والدقيق، وأكثرُهُم للآخِرَةِ لا يعقلون.

ألَمْ تسمعْهُ عَزَّ وجلَّ يقول: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهم بالدنيا أهلُ بصرٍ وسمْعٍ وعَقْلٍ، ولم يَعْنِ أنهم صُمٌّ، خُرْسٌ، مجانين، وإنَّما عَذَّبَهُمْ لأنهم يعقلون لو تدبَّروا ما يَرَوْنَ ويسمعون من الدلائل عليه من آيات الكتاب، وآثارِ الصنْعَةِ، واتصالِ التدبير، الذى يَدُلُّ عليه أَنَّهُ واحدٌ لا شريك له.

وحكى تعالى قولَ أهلِ النارِ فقال: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠].

وقد كانت لهم عقولٌ وأسماعٌ لَزِمَتْهُم بها الحُجَّةُ لله عز وجل.

وإنَّما عنى عَزَّ وجَلَّ أنَّها لم تَعْقِلْ عن الله فهمًا لِما قال من

عَظِيمِ قَدْرِ عذابه، فندِمَتْ، ونَادَتْ بالوَيْلِ والنَّدَمِ لا أنَّها لم تَكُنْ تَسْمَعُ ولا تَعْقِلُ، ولا كانوا بمجانِينَ، ولكن يعقلون أمْرَ الدنيا، ولا يَعْقِلونَ عنِ الله ما أخبر عنه وَوَعدَ وتَوَعَّدَ.

قلت[1]: فمتى يُسَمَّى الرجُلُ عاقلاً عن الله تعالى؟

قال: إذا كان مؤْمنًا خائفًا من الله عز وجل.

والدليلُ على ذلك أنْ يكونَ قائمًا بأمْرِ الله الذى أوجب عليه القيامَ به، مُجانبًا لما كَرِهَ ونَهاهُ عنهُ، فإذا كان كذلك استحقَّ أن يُسَمَّى عاقلاً عن الله.

بل لأنه لا يُسَمَّى عاقلاً عن الله مَنْ يعزم على القيام بِسُخْطِه فأقامَ على ذلك مُصرًّا غيرَ تايب.

قلتُ: فمتى يُسَمَّى العاقلُ عن الله كامِلَ العَقْلِ عن الله تعالى؟

قال: إنَّ العَقْلَ عن الله تعالى لا غايَةَ له؛ لأنه لا غايةَ لله عز وجل عند العاقل بالتحديد، بالإحاطة بالعلم بحقائقِ صفاتِه، ولا بِعَظيمِ قَدْرِ ثوابِه ولا عِقابِه إذ لم يعاينْها.

---

(١) يرجح المحقق أن السائل هو الجنيد.

ولو عاين الله جَلَّ ثناؤُه وتقدَّسَتْ أسماؤُهُ بصفاتِهِ لما أحاطَ به علمًا.

ولكن، وقد يَقَعُ اسم الكمالِ على الأَغْلَبِ فى الأسماء فى العقل عن الله تعالى لا العقل بالكمال الذى لا يَحْتَمِلُ الزيادَةَ.

ألا تَرَاهُ عَزَّ وجَلَّ يقولُ لرسوله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]

ورُوى عن الملائكة أنها تقول يوم القيامة: «ربٌّ ما عبدْناكَ حَقَّ عِبادتِكَ».

فلا أَحد يساوى الله عَزَّ وجَلَّ فى العلْمِ بنفسِهِ فيعرفَ عن عَظَمَتِهِ تعالى كَمالَ صِفَاتِهِ كما يعلمُ الله عَزَّ وجَلَّ عن نَفْسِهِ.

فأَعْظَمُ العاقلينَ عنده العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، الذين أقرُّوا بالعجز أنهم لا يَبْلُغُونَ فى العقلِ والمعرفةِ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ.

ولكن قد يُسَمَّى كاملاً فى العقل عن الله فى ما غَلَبَ عليه من الأَفْعال التى كانت عن العاقلِ كاملاً منْ كانت فيه ثلاثُ خلال:

الخوفُ منه، والقيامُ بأمرِه، وقوةُ اليقين به، وبما قال ووعد وتوعَّدَ.

وحُسْنُ البَصَر بدينه بالفقه عنه فيما أَحبَّ وكَرِهَ مِنْ عِلْم ما أَمَرَ به ونَدَبَ إليه، والوقوف عند الشُّبُهاتِ التى سَمَّى الله الوُقوفَ عنها رُسوخًا فى العلم به.

فإذا اجتمع الخوفُ منه، وقوةُ اليقين به وبما قال ووعد وتوعَّد، وحُسْنُ البَصَر بدينِ الله، والفقه فى الدين، فقد كَمَّلَ قوةَ عقله.

وإن كانَ الخَوفُ مِنَ الله هو مِنْ قُوَّةِ اليقين بالوعيد، فإنه قد يكونُ خائفًا، ولا يكونُ معه اليقينُ القوىُّ الذى ينالُ به الرضى والتوكُّل والمحبة والزهد.

فمن ثَمَّ قُلْنا: الخوفُ من الله وقوةُ اليقين والبصرُ بالدين، لأنه قد يكونُ قوىَّ اليقين وليس يُحْسِنُ البَصَرَ بالدين. ويكونُ بَصيراً بالدين لا خائفًا ولا قوىَّ اليقين.

وجمَاعُ هذه الثلاثِ الخصال قوةُ اليقين، وحُسْنُ البَصَر بالدين. وإنما زِدْنا ذِكْرَ الخَوف، وإن كان من اليقين؛ لأنه قد يكونُ خائفًا، وليس بالقوىِّ اليقين فى كمالِ ما قال الله عزَّ وجلَّ مما

وصَفَ به نَفسَهُ من قَدْره وجلاله وعَظَمَته، وما وعد وتَوَعَّدَ، وحَذَّرَ، ورَجَا، وأنعَم، وابتَلَى به.

ثم هذه الثلاثُ الخلالُ حقائقُ من الفعل بالقلب والجوارح، لأنه **إذا تَمَّ عَقلُ المؤمن عن ربِّه أفردَهُ عزَّ وجَلَّ بالتوحيد له في كُلِّ المعاني**؛ فعلم أنه مالكٌ له لا غيره، وأنه عَتيقٌ ممن سِواهُ؛ فَتَواضَعَ لعَظَمَته، واستَعْبَدَ، وخَضَعَ لجَلاله، ولم يَذِلَّ لِمَنْ سواه؛ وعَقَلَ عنه أنه الكاملُ بأحسنِ الصِّفات، المتنزهُ من كُلِّ الآفات، المُنْعِمُ بكُلِّ الأيادى والإحسان. فاشتدَّ حُبُّهُ له، لما يَسْتَأْهِلُ لِعَظيم قَدْرِه، وكريم فِعَالِه، وحُسْنِ أياديه.

وعقل عنه أنه لا يملكُ نفعَهُ وضرَّهُ فى دنياه وآخرَتِه إلاَّ هو، فأفرَدَهُ بالخوف والرجاء وحدَهُ وآمَنَ به، وأيِسَ مِنْ جَميعِ خَلقِه. فهو المُوحِّدُ له إذا عقل وحدانيَّتَهُ وتفرُّدَهُ بكل معنًى كريم، ووصفٍ جميل، وجلال عظمته، ونفاذ قدرته ومُضيّ إرادته، وإحاطَة علمِه، وقديم أزَليَّته.

فإذا كان كذلك زايَلَ الكِبْرَ على (العباد) لخضوعه لجلال الله مولاهُ فتواضَعَ للحقِّ ولم يَحقِرْ مسلِمًا لشدة معرفته بصغرِ قَدْرِ

نفسِه ولِما جنى من الذنوبِ على نفسه ولعلمه بأنَّ خواتمَ الأَجل بسوءِ العواقبِ، وحسنَ الخاتمةِ من الشقاء والسعادة قد سبقَ بهما العلمُ ونَفَذَتْ فيهما المشيئةُ.

فقد أَمِنَ مَنْ عرفَه كِبْرَهُ وبَغْيَهُ وقد عَقَلَ عن الله جَلَّ وعَزَّ حجَجَهُ على خَلْقِه واعتذارَهُ إلى خَلْقه بأنه ليس لهم بظالم، وأنه قد بدأَهُم بالرحمةِ قبل العُقوبة وقد سبقت منه الأَيادى قبل الشكر. طويلُ الحلم، دائمُ التأنِّى، جميلُ الستر، مُقيلُ العَثَرات، مُحْسِنٌ إلى مَنْ تَبَغَّضَ إليه، متقرِّبٌ إلى مَنْ تباعَدَ منه، وعقل عنه أمره وآدابَهُ وأَحْكَامَهُ وعقل داءَ النفوسِ ودواءَها.

فمن عرفه أَمَّلَ الرشدَ منه، وأَن يَحيا بمنطقه، ويعْقِلَ عن الله جَلَّ ذِكْرُهُ بتأْديبه له.

وعَقَلَ عن الله عَزَّ وجَلَّ ما عَظَّمَ مِنْ قَدْرِ ثوابه فى جَنَّته بدوامِه، وطيبِ العيشِ فيه، وزوال الآفات، والتكدير، والتنغيص عنه، وأنه فوق ما تُحِبُّ النُّفوسُ، لا يُحْسِنُ أَحدٌ أَن يخطُرَ بباله ذِكْرُ كثيرٍ مما أُعدَّ فيها.

وقد قال الرسول ﷺ: «أعَدَّ الله عَزَّ وجَلَّ فى جنته ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وكفاك بالله تعالى واصفًا عما أعَدَّ لأوليائه إذ يقول عز من قائل: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

[السجدة: ١٧]

فقد أخبرنا أنه جاز فى الكمال، والنعيم، وقُرَّةِ العيون وصفَ الواصفين، ومعرفة العارفين، وذِكْرَ الذاكرين لجميع النعيم. فَعَظُمَ فى قلبه جوار مولاه وما أعدَّ فيه لمن أناب إليه وأطاعَهُ، فشخَصَ إليه بعقْله؛ فاتَّصل ما استودع قلبه من العلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كأنه رأىُ عينه كما قال حارثة: (فكأنى أنْظُرُ إلى عرش ربِّى بارزًا، وإلى أهل الجنة يتزاورون).

وكما قال الحَسَنُ وذكر أولياءَ الله فى الدنيا فقال: (صَدَّقوا به فكأنما يَرَوْن ما وُعِدُوا رأىَ العين).

فلما اتَّصل عَقْلُهُ بمشاهدة ذلك حَنَّ واشتاقَ، فلمَّا حَنَّ واشتاقَ تعلَّقَ قَلْبُهُ واشتغل، فلمَّا اشتغَلَ بالشَّوْقِ إلى جوارِ ربه سلا عن الدنيا فلها عنها، فَمَنْ تَفَكَّرَ فى دارِ الدُّنيا - أين هى من جوار ربه إذ يقولُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]، قيل فى التفسير: تفكَّروا فيهما فعلموا

أَنَّ الدنيا دارُ فناء، وأَنَّ الآخرةَ دارُ جزاءٍ وبقاء - فعقل نَعْتَ ربه لزوال الدنيا وفنائها، وأَنَّ كل ما أَخَذَ منها لغيرِ القُربةِ إلى ربِّه في جِوارِه ناقصٌ مِنْ دَرَجَاتِ القُرْبِ، وكمالِ النعيمِ في جِوارِ ربه، وأَنَّ فيه الحسابَ والسؤَالَ عن نعيمها بالحبسِ عن السَّبْقِ في أَوائلِ الزُّمَرِ إلى جِوارِ ربِّه ومولاهُ، وأَنها مَشْغَلَةٌ له عن الاشتغالِ بربِّه ما دامَ فيها حتَّى ما يعدلُهُ من الأُنْسِ بربِّه وحلاوةِ مُناجاةِ سيِّده.

فارتفع قلبُهُ عنها وتمنَّى أنْ لو استغْنى أَنْ يتناولَ منها شيئًا، فلم يَجِدْ بُدًّا من الأَخذِ منها ما يُقَوِّيه على طاعة ربه خوفًا أَن يُمسِكَ عن القُوتِ فينقطعَ عن عبادةِ ربِّه.

فكان نصيبُهُ منها القوتَ من الغذاء، ولم يتكلَّفْ ما جاز بُلْغة القوت من غذائه وستر عورته، وإن تكلف طلبه لم يتكلف إلاَّ للقُرْبةِ إلى ربِّه، فإن ابتُلِيَ منها بما فوق غذائِه وسَتْرِ عورته مِنْ مِثْلِ ميراثٍ أَو غيره فمبذولٌ كُلُّهُ لربِّه يفرحُ بإِخْراجِه، ويغتمُّ أَن يَمكُثَ عنده أَقلَّ من طَرْفَةِ عَيْنٍ.

وعقَلَ عن الله تعالى آياته في تدبيرِه وحكمتِه في آثار صنعتِه، ودلائلِ حسن تقديره؛ فعَلِمَ أَنَّه بِقُدْرَةٍ نافذةٍ قَدَّرَها،

وبحكمةٍ كاملةٍ أتقَنها، وبعلْمٍ مُحيطٍ اخترَعَها، وبسَمْعٍ نافذٍ سَمعَ حَركاتِها، وببَصَرٍ مُدْرِكٍ لها دَبَّرَ لَطَائفَ خَلْقِها، وغوامِضَ كوامِنِها، **وما وارَتْهُ حُجبُها وسَوَاتِرُها.**

فاستدَلَّ بذلك أنَّه الإلهُ العظيمُ الذى لا إله غيرُهُ، ولا رَبَّ سواهُ. **فكأنَّ جميعَ الأَشياءِ عينٌ يَعْتَبِرُ بها، ويُحِلُّ ويُعَظِّمُ لِما يَرَى ويَسْمَعُ من مولاه وسيده، فدام ذِكْرُهُ وزالتْ عن الله عزَّ وجلَّ غَفْلَتُهُ**، وعقَلَ عن الله تعالى أنه ما يبلغُه غاية العلم به، ولا بلطائفِ مَحابِّه، والقربِ إليه والفَهْمِ لِما كَلَّمه به، فكان مع سيِّده اجتهادُهُ، ودوامُ اشتغالِه بربِّه، غير تاركٍ ولا منقطعٍ عَن طلب الازدياد من العلم بربه.

والتَّزيُّدُ فى الفقه عنه أعلى فى قلبه، وأعظم عنده قدراً من الازدياد من كثير أعمال النوافل، إذ عقل عن ربه أنَّ أقلَّ قليل المعرفةِ يُورِثُ التعظيمَ والهيبةَ، ويبعثُ على الاجتهاد، ويورِثُ الطاعاتِ، والشغلَ عن جميع العباد.

وعقَلَ عن الله تعالى أنَّه ابتدأ عبادَهُ بالرحمةِ والتفضُّلِ والإحسانِ بعد تقديمِ العِلْمِ منه لهم أنهم سيَعْصُونَهُ ويخالِفُونَ أَمْرَهُ

فلم يمنعْهُ ذلك عن ابتدائِهِمْ بالنِّعَمِ والتَّحَنُّنِ والرحمةِ والإحسانِ. وجعلَ أفضلَ أوليائِه عنده، الرحماءَ بخلْقِه، المتَحنِّنين على عبادِه، الناصحينَ لبريَّتِه، وهم رسلُهُ الداعون العبادَ إلى نجاتِهم، والمحذِّرون لهم من هلكتِهم، المتحمِّلون منهم الأذى، والمتحنِّنونَ عليهم بالرحمةِ والنُّصْحِ والإشفاقِ، مع أذاهُم لهم، وتكذيبِهم إيّاهم، واستهزائِهم بهم؛ لا يكافئونهم بمثل ما نالوا منهم، ولا ينصرفون عن الإشفاقِ عليهم إذ سَمعُوا الله جل ثناؤُه يَصِفُهُم إذ قالوا لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف : ٦٠].

وقالوا لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف : ٦٦].

ثم وَصَفَ جوابَهُما فقال نوح: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦١]

ووصف ردَّ هودٍ عليهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨]، أي تظفرون بثواب الله إن قبلتم مني،

فأخبرهم بعد تسفيههمْ له أنه لم يَنْصَرِفْ من أجل ذلك عن النصيحة لهم لعلهم يفلحون.

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال النبيُّ ﷺ، ووصف نَبيًّا من الأنبياءِ شَجَّهُ قَومُهُ فهو يمسحُ الدَّمَ عن وجههِ وهو يقول: «ربِّ اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون».

ورُوى أنَّ نوحًا عليه السلام كان يَخْنُقُهُ قَوْمُهُ حتى يُغْشى عليه فإذا أفاق قال: «ربِّ اغفرْ لقومي إنهم لا يعلمون».

وفضَّلَ النبيُّ ﷺ صدِّيقَ هذه الأمة عليها بالرحمة لها، فقال: «أرحمُ أُمَّتي بها أبو بكر».

فلمَّا عقل عن الله عز وجل ما ابتدأَ العبادَ به من الرحمة، وأنه خصَّ أعظمَ خَلْقِهِ عنده قدرًا، وفضَّلَهُ بها على جميعِ العباد، ألزم قلبَهُ رحمةَ الأُمَّةِ فأحَبَّ مُحْسِنَهُمْ، وأشفق على مسيئهم، ودعا إلى الله سبحانه - إذا أمكنه - مُدْبِرَهُمْ، ولم يدَّخِرْ مالاً عن فقيرهمْ فَفَضْلُ ماله عليهم مبذول، والمواساةُ في قُوتِهِ منهم

المجهودُ. مَنْ سَأَلَهُ منهم ما يَقْدِرُ عليه لم يتبرَّمْ بطلبِه، ولم يَضْجَرْ بإعطائه للرحمةِ التى لَهُمْ فى قلبه، ومن آذاهُ وأساءَ إليه لم يَجِدْ فى نفسِه كراهيةً للعَفْوِ والصَّفْحِ عنه. يَعُدُّهم جميعًا كأقربِ الخَلْقِ منه. كبيرهُمُ مثلُ أبيه، وصغيرُهمُ كولدِه، وقرنُهُ كأخيه، فكُلُّ هؤلاء يُحِبُّ الإحسانَ إليهم، وأَنْ لا يفارقَ قَلْبَهُ الشفقةُ عليهم.

وعقلَ عن الله تعالى عظيمَ قَدْرِه وقدر ما يطلُبُ من ثوابِه، وما يخافُ من عقابه، وعظيمُ الأيادى وكثرةَ النعيم عنده، وأَنَّ جميعَ خلقِه من أهل سمواته وأرضه لو دأبوا جميعًا واجتهدوا عُمرَ الدنيا كلها وأبدًا ما أدَّوا شُكْرَ نِعَمِه ولا أدَّوا ما يَحِقُّ فى عظمته. فكيف بالحلول فى جواره، والنجاة من عذابه؟

فقد عقل أىَّ ربٍّ يعبد، وأىَّ ثواب يطلب، ومن أىِّ عقابٍ وعذاب يَهْرُبُ، وأىَّ نعيمٍ يَشْكُرُ، والشكر أيضًا ممن هو ومَنْ مَنَّ به.

فلما عقل ذلك كُلَّه عن ربه استقلَّ واستصْغَرَ جميع دءوبه واجتهادِه لِعَظيمِ ما عَقَلَ من جميع ذلك.

وعقلَ عن الله تعالى ما وَصَفَ به نفْسَهُ أنها بالسوء أمَّارة،

وللذنوب مسوِّلة، وأنها هي التي جنَتْ عليه ما قد أحصاه ربُّه عليه، ولم يأمَنْ أن يكون قد حَلَّ به غَضَبُهُ، وأنه لا يكادُ يَعْدِلُ في بعضِ أحواله أن يتعرَّض لبعض مَسَاخِطِه، وأنه قد لزِمَتْهُ عظيمُ حُجَّةِ ما خُصَّ به من العلم، وما مَنَّ عليه به من المعرفة دون أكثرِ العَوامِّ. فاستكثر قليلَ طاعتِهِمْ واستعظَمَها مع استصْغارِ كثير الطاعاتِ من نفسه لأنه أعلمُ بنفسِهِ وبذُنوبِهِ من ذنوبِهِمْ، وأنَّ الحُجَّةَ عليه أعظمُ منها عليهم.

وعقلَ قَدْرَ مَنْ عصاه وخالفه فيما أمره به؛ فعقل قَدْرَ عظمةِ مَنْ عصاه، وشدَّةَ غَضَبِهِ، وشِدَّةَ عذابه، وَهوْلَ المُكْثِ في عقابه إن لم يَعْفُ عنه.

فعقل كَثْرَةَ ذنوبِهِ و(سوءَ رغبةِ) نفسِهِ، ودناءَةَ همتِهِ، وعجيبَ جهله؛ إذ كان قد آثَرَ على رِضَاهُ من العبيد ما لا معنى لهم في دُنْيا ولا آخرة بمِلْكٍ، ولا نَفْعٍ ولا ضرٍّ، وإيثارَهُ من الدنيا المكدِّرَ المنغِّصَ الفانيَ منه، والفاني هو عنه، والباقي عليه بعد فنائِهِ شدة الحساب، وعظيم السؤَال عنه ثم لا يَأمَنُ من سخط الله في الآخرة على ذلك أن يَحِلَّ به.

فلمَّا عَقَلَ عن الله عَزَّ وجَلَّ جميعَ ذلك من نفسه، وتستَّر عنه عامة ذنوب الخلق، وحقَّتْ عليهم الحجَّةُ بدون ما وجَبَتْ من الله عز وجل من أجل العلم الذى استودعه، والستر عليه لذنوبه وما حَبَّبهُ إلى عباده؛ لم يأمَنْ أنْ يكونَ استدراجًا له، وأنَّه وُكِّلَ بالخوف على نفسه قبل غيره، وأنه لا يأمَنُ لسالف ذنوبه، وتضييع شُكْرِ نِعَمِ ربِّه، وعظيم ما لَزِمَهُ من الحُجَّة، وأن يُخْتَمَ له بغير دينِ الإسلام، أو بعظيمِ الذنوب مع الإيمان؛ فلم تقع عينُهُ على أحدٍ، ولم يستمع به من المسلمين إلا خاف أن ينجو ويهلك هو دونه. يكسر قَلْبَهُ مَنْ يرى مِنْ أهلِ الطاعات، ويقطعُ عليه أنه خيرٌ منه، ويتمنَّى أنْ يكونَ مثله، ويهيجُ عليه الخوف من قلبه مَنْ رآه دونه فى الدين يخافُ أن يهلكَ هو دونه، أو يُختم له بأشرِّ الأعمالِ لعظيمِ حجَّةِ العلم، وجميلِ السَّتْرِ عليه، ولما أمَرَ به من خوفِ سُوءِ الخواتم التى مات عليها الأشقياءُ فهو مُتَواضِعٌ للعباد كلِّهم لشدَّةِ ذِلَّةِ الخوف على نفسه.

وعَقَلَ عن الله عزَّ وجلَّ ما بَيَّنَ من قَدْرِ الدنيا والآخرة فعقلَ صِفَةَ الآخرَةِ بنعيمها ومُلكها وشرفها وعزِّها، وعظيم قَدْر سكانها أنها فى جوار المولى، وما وُصِف به سوءُ عيش الدنيا وضعةُ رفعتها

عنده يوم يحاسب عباده، وذل العزيز بها عنده فى يوم يبعث خَلْقَهُ، وحقارَة المتكبِّرين فى عينه، وصنعه بهم يوم النشور حتى إنهم ليُحشرون فى صُوَرِ الذَّرِّ دون جميعِ العباد.

وعقل عن الله ما أمره به، وأخبر أنَّ الفقير مَنِ استغنى بالدنيا عنها، ومن يجازى بما حرمه من خفةِ الحساب والتصاعُدِ فى معالى درجاته.

فلمَّا عقلَ ذلك كُلَّهُ عن ربه كان الفقرُ فى الدنيا أَحبَّ إليه من الغِنَى بها، وكان التواضُعُ أَحبَّ إليه من الشرف فيها، وكان الذُّلُّ أَحبَّ إليه من العزِّ بها.

* * *

مسألة فى العقل

الحُجَّةُ حجتان :

عَيَانٌ ظاهرٌ، أو خَبَرٌ قاهرٌ.

والعقلُ مُضَمَّنٌ بالدليل، والدليلُ مضمَّنٌ بالعقل.

والعقلُ هو المستدلُّ.

والعَيانُ والخَبَرُ هما علَّةُ الاستِدْلالِ وأصْلُهُ.

ومُحالٌ كَوْنُ الفَرْعِ مع عدمِ الأَصلِ، وكَونُ الاستدلالِ مع عَدَمِ الدَّليل.

فالعَيَانُ شاهدٌ يَدُلُّ على غيبٍ.

والخَبَرُ يَدُلُّ على صِدْقٍ؛ فَمَنْ تناولَ الفَرْعَ قبل إحكامِ الأَصلِ سُفِّه.

وَرُبَّ حقٍّ أَحقُّ مِنْ حَقٍّ، كَمَنْ عفا ومن اقتصَّ، وكاقتضاءِ الدَّينِ سَاعَةَ مَحَلِّه، أَو تَرْكِه قليلاً إحسانًا إليه، فَقَدْ أحسنَ فى الطَّلَبِ.

فكم مِنْ حَسَنٍ أحسنَ منْ حسنٍ غيره، وقبيحٍ أقبحَ من قبيحٍ، وفرضٍ أوجب من آخَرَ، وفَضْلٍ أَفْضَل مِنْ فَضْلٍ آخَرَ.

والحُبُّ والبُغْضُ إذا أَفْرطا أنقصا الاعتدال، وأفسدا العقل، وصوَّرا الباطلَ فى صُورةِ الحَقِّ.

فأَهْلُ الشَّرِّ لا يُفَرِّقُونَ بين أئمَّتِهِمْ كما لا يُفَرِّقُونَ بين إمامِهِمْ.

وإنَّ الحَقَّ فى كُلِّ أَمْرٍ بَيِّنٌ، والباطلَ فى كُلِّ حالٍ داحضٌ، إلاَّ أنَّ كثيراً من الناسِ لا يَعْرِفُ وَجْهَ مَطْلَبِهِ، وبعضُهُمْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ ويجهلُ بعضَهُ، ومنهم مَنْ عرفَ ثم نَسِىَ، ومنهم من يَعْرِفُ أَكْثَرَهُ ولا يعرفُ أَسْهَلَ طُرُقِهِ، وأقربَ وَجْهِهِ.

فجميعُ الحَقِّ فى فُنونِ الطاعات، وتحذير الباطل فى مذاهبه إذا جمع وأَلف، وكانَ أَنْشطَ لحِفْظِهِ، ويفهمُهُ مَنْ كان لا يَنْشَطُ لأن يطلُبَ عملَهُ حتَّى يجمعَهُ.

والعالِمُ به يُريدُ جَمْعَهُ فى بَصيرتِهِ، وجَمْعَ كُلِّ مذهَبٍ إلاَّ خَبَرَ الواحدِ لِمَنْ كان لا يعرفُ إلاَّ بعضَهُ.

ويذكِّرُ الناسَ بما قد عَلمهُ فَنَسِيَهُ، وينبِّهُ المتهاونَ لِمَا كان قد

اشتغلَ عن العنايةِ بالقيام به، ويُبيِّنُ للزَّائغ عن طَريقِ الرُّشْدِ أنه قَدْ تَرَكَهُ. ولعلَّ مَنْ نَظَرَ فيه بالإعْجابِ برأْيِه أن يَنْقُضَ مذاهبَهُ، إذا فَهِمَ حُسْنَ العبارةِ عنه، وإيضاحَ حُجَجِه، ونُورَ بيانه؛ يتنبَّهُ مِنْ رَقْدَتِه، ويُفيقُ من سَكْرَتِه، لأنَّ الحَقَّ عزيزٌ أينَ كانَ، والباطل ذَليلٌ في كُلِّ أوانٍ.

* * *

والحجَّةُ ظاهرةٌ بنوريها على الشبهةِ.

وليس مَنْ تفرَّدَ بكتابٍ يقرؤُه وحده مُتَثَبِّتًا فيه؛ لا يَشْغَلُهُ عنه سببٌ يقطعُهُ كَمَنْ نازَعَ غيره لأنه يعترضُ في المُناظرةِ آفاتٌ كثيرةٌ من العُجْبِ بالرأْي.

والذي يمنَعُ مِنَ الفَهْمِ الأَنَفَةُ التي تَمنَعُ من الخُضُوعِ للحقِّ، وحُبُّ الغَلَبة الذي يَبْعَثُ على الجَدَلِ، والجَزَعُ من التَّخْطِئةِ التي تَمنَعُ من الإذْعانِ بالإقْرارِ بالصَّواب.

فَلمَّا كَثُرتْ آفاتُ المُناظَرَةِ، وكان التفرُّدُ بقراءَةِ الكتابِ المجموعِ فيه، والمؤَلَّف فيه حدود الحقِّ، رأيتُ أنْ أُصَنِّفَهُ مبينًا، وأستشهدَ عليه الكتابَ والسنةَ وإجماعَ الأُمَّةِ أو استنباطًا بيِّنًا،

أو قياسًا إذا عدم البيانُ بالنصِّ فيما يجوزُ فيه القياسُ، وإلا فالتسليم. والأَصْوَنُ الكَفُّ عن تَكَلُّفِ ما نُهِيَ عنه مما يَسَعُ جَهْلُهُ، ولا يؤَدِّى عِلْمُهُ إلى القُرْبى. بل تَرْكُ البحْثِ عنه هو القُرْبى والوسيلةُ إلى رِضَى الله عز وجل.

ولا غَنَاءَ بالعَبْدِ عن التَّفْكيرِ والنَّظَرِ والذِّكْرِ ليكْثُرَ اعتبارُهُ، ويزيدَ فى علمه، ويَعْلُوَ فى الفضلِ.

فَمَنْ قَلَّ تفكُّرُهُ قَلَّ اعتبارُهُ، ومَنْ قَلَّ اعتبارُهُ قَلَّ علمُهُ، ومن قَلَّ علمُهُ كَثُرَ جَهْلُهُ، وبانَ نَقْصُهُ ولم يَجِدْ طَعْمَ البِرِّ، ولا بَرْدَ اليقين، ولا روحَ الحكمة.

وما بلغ عِلْمُ مَنْ دَرَسَ العِلْمَ بلسانه، وحفظَ حروفَهُ بقَلْبِه، وأَضرَبَ عن النَّظَرِ والتَّذكُّرِ والتَّدبُّرِ لمعانيه وطلب بيان حدوده؟

ما أَقربَهُ فى حياته من حياةِ البهائمِ التى لا تعرفُ إلاَّ ما باشَرَتْهُ بجَوارِحِها، لكنَّ المتذكرَ النَّاظرَ فيما يَسْمَعُ، المتدبِّرَ لما عَلِمَ، المتفَّهم لما به أُمِرَ، الطالبَ لنهايةِ حُدود العلمِ، الغائصَ على غَامِضِ الإصابة، المُحكِمِ للأُصول، الرَّادَّ

عليها الفُروعَ، هو المُفَرِّق بين ما لَهُ وما عليه، والمُبْصر لما يُصْلحُهُ وما يُفْسِدُهُ، القوى على عصيان طبائعه المنازعة إلى ما يُهْلِكُهُ، والمخالف لشهواته التى تُرْديه.

عارفٌ بعواقب الأُمور وبما يَحْدُثُ فى غابر الدهور مما حدثَ منه، **وهابَ ربَّه، المؤْثرُ لذَّةَ عقله على لَذَّةَ هَواهُ..**

لَذَّةُ الحكماءِ العلماءِ فى عقولهم ولذةُ الجُهَّالِ والبهائمِ فى شَهَواتهم.

وأَىُّ سرور يعدلُ سرورَ العِلْمِ، وروحَ اليقين، وعظيمَ المعرفة، وكثرةَ الصواب، والظفرَ الذى لا يَثْبُتُ ولا يُنالُ إلا بحُسْنِ النَّظَرِ، وطولِ التَّذكُّرِ، وتكْرارِ الفكْرِ، والتقديمِ فى التَّكْبير.

فبذَلِكَ ظَفِرَ بالعِلْمِ بالله، والتعرُّضِ لولايته، وطلبِ الجاه عنده، والتسليمِ لأَمره، والتوكُّلِ على كِفايَتِه، وبَذْلِ القليل من الدنيا للثوابِ الجَزيل؛ لأنَّه الربُّ الكريمُ.

مَنْ طلَبهُ وجدَهُ، ومن استكْفاهُ كَفاهُ، ومن اتَّقاهُ وَقَاهُ، ومن تَقَرَّبَ إليه أَسرع إليه بالإجابة.

يدعوكَ إن أدْبَرْتَ ويَقْبَلُكَ إنْ رَجَعْتَ، ويحمَدُكَ على حَظِّكَ، ويُثني عليكَ بما وهَبَ لكَ، ويحضُّكَ على النَّظَرِ لنَفْسِكَ.

إنما يُمرِضُك ليُصحَّكَ - إن عقلْتَ - ويفقرُكَ ليُغْنيكَ، ويمنعُك ليُعطيَكَ، يمنعُك القليلَ الفانيَ لترضى؛ فيعطيَك الجزيلَ الباقيَ، ويميتُكَ ليُحْييكَ، ويفنيكَ ليُبْقيكَ، ويُداويكَ بالأمراضِ لتبْرأَ مِنْ سَقَمِ الذُّنوبِ، ويَغُمُّكَ بالأوجاعِ ليَغْسِلَكَ مِنْ دَرَنِ الخطايا، ويعركَكَ بالبَلاءِ ليُلينَ قَلْبَكَ لطَلَبِ الفَوز.

ابتدأَكَ بالنِّعَم قبل أن تسأَلَه، وثنَّاها بعدما ضَيَّعتَ شُكْرَه، وأدامها بإحسانِه مع دوام الإعراض منْكَ عنه، **فكيف تعرفُ إحسانَهُ، وتتبيَّنُ إساءَتَكَ، وتُبْصرُ نَجَاتَكَ، وتتَّضح لك أسبابُ عَيْشكَ إلا بالنَّظر بعقلكَ فيما قال؟** والتذكُّر والمجاهدة لنفسكَ إلا لتَعرِفَ ما يُرضيه وتُجانبَ ما يُسْخطُهُ، ويباعدُ منه؛ **لأنه قد جَعَلَ فيكَ غَريزةَ العقل، ومَنَّ عليكَ بالمعرفة**، وابتلاكَ بما في طِباعِكَ مما يهيجُ الغَضَبَ والرضى والبخلَ بالسُّكوتِ لأنَّ الصَّمْتَ

أعجمىٌّ، وفاعلُهُ كالأخرسِ لا يعرفُ معناه إلاَّ صاحبُهُ. والقولُ فصيحٌ مبين يَعْرِفُهُ سامعُهُ، ومَنْ بَلَغَهُ إلى يوم القيامة لم يَعْرِف القولَ الحَقَّ بالصَّمْتِ، ولا جميعَ الأعمالِ بالحَقِّ إلاَّ بالقَوْلِ، بل لم يعرف الصمتَ عن الباطلِ إلاَّ بالقول لِمَا عَرَفَهُ من الكتاب.

وإنَّما أمرَ النبىُّ ﷺ بالصَّمْتِ لتاركِ القَوْلِ بالخَيْرِ فقال: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخرِ فليقُلْ خيرًا أو ليصمت».

ولم يُعرف الأداءُ والبيانُ عن جميعِ الإحسان إلاَّ بالقول.

* * *

فى العقل[1]

وأَنَّهُ خاطَبهُمْ به من قِبَلِ أَلْبابِهِمْ، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤، الرعد: ٤، النمل: ١٢، ٦٧، العنكبوت: ٣٥، الروم: ٢٤، ٢٨، الجاثية: ٥] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤، الرعد: ٣، النحل: ١١، ٦٩، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣]، **لأنه جعلَ العقولَ معادنَ الحكمة، ومقْتَبَسَ الآراء، ومُسْتَنْبَطَ الفهمِ، ومَعْقِلَ العِلْمِ، ونورَ الأَبْصارِ، إليها يأْوى كُلُّ محصول، وبها يُسْتَدَلُّ على ما أَخبر به من عِلْمِ الغُيوبِ، فبها يقدِّرونَ الأَعمالَ قبل كونها، ويعرفون عواقِبَها قبل وجودها، وعنها تصدرُ الجوارحُ بالفعال بأَمرها، فتسارع إلى طاعتها أَو تزجُرها، فتمسك عن مكروهِها.**

---

(١) المحاسبى [كتاب فهم القرآن ومعانيه] ص ٢٦٦، ٢٦٧.

فاستخْلَصَ من عبادِه خالصةً من خَلْقِه، فَهِمَتْ عنه قولَهُ بعقولِها، فاتَّسع لها ما خفي عن الأبصار.

ثم أخبرهُم أنه أنزل كتابَهُ ليدَّبَّروا آياته بعقولهمْ، ويتذكَّروا ما قال بألبابِهِمْ، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ فسمَّاه بالبَرَكَة، ليَعْلَمَوا بذلك أنه يَدُلُّهمْ على النجاة، وينالُونَ باتباعه الزُّلفى والكرامةَ. ثم قال: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ فأخبر أنه أَنْزَلَهُ للتذَكُّرِ والتفكُّرِ فيه، وخصَّ بالتفكُّرِ والتَّذكُّرِ أَهْلَ العُقولِ، أُولى الأَلْباب[1].

* * *

(١) المحاسبي [كتاب فهم القرآن ومعانيه] ص ٢٧٥.

(٢) حُجة الإسلام أبو حامد الغزالى
(٤٥٠ - ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ - ١١١١م)

هو أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد الغزالى.. فقيه شافعى.. ومتكلم أشعرى.. وأحد الذين طوروا الأشعرية، التى غدت المذهب الكلامى لجمهور الأمة الإسلامية.. وهو - أيضًا - أصولى .. وفيلسوف.. وصاحب تجربة صوفية شديدة الغنى وبالغة الثراء، أثمرت إبداعًا متميزًا فى علم السلوك والقلوب..

ولد الغزالى فى «الطابران» - من أعمال «طوس» - فى مشرق العالم الإسلامى - .. ورحل - طالبًا للعلم ومعلّمًا - إلى كثير من الحواضر والأقاليم فى عالم الإسلام - مثل نيسابور.. وبغداد.. والحجاز.. والشام.. ومصر - وغيرها.. ثم كانت وفاته بخراسان..

ولقد تميز الغزالى - فى تاريخ الفكر الإسلامى - عندما جمع بين الاجتهاد وبين التجديد والإحياء لحياة الأمة ولعلوم

الإسلام.. كما كان نموذجًا لمنهاج الوسطية الإسلامية التى جمعت بين العقل والنقل والوجدان..

كما تميز عندما أصبح «ظاهرة فكرية» تطبع قطاعات واسعة من ميادين الفكر الإسلامى، وتجتذب المريدين، منذ عصره وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه..

ولقد بلغت مؤلفات الغزالى نحواً من مائتى كتاب ورسالة – كتب أغلبها بالعربية.. وبعضها بالفارسية – ثم ترجمت إلى العربية.. كما ترجمت العديد من آثاره الفكرية إلى العديد من اللغات الأوروبية.. وكان واحداً من الذين أثروا تأثيراً كبيراً فى الفكر الدينى الغربى، وفى النهضة الأوروبية الحديثة..

ومن أهم آثاره الفكرية :

١ – [إحياء علوم الدين] . ٢ – [تهافت الفلاسفة].

٣ – [مقاصد الفلاسفة] ٤ – [المستصفى من الأصول]

٥ – [الاقتصاد فى الاعتقاد] . ٦ – [معيار العلم] .

٧ – [القسطاس المستقيم] . ٨ – [ميزان العمل].

٩ – [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] .

١٠- [مشكاة الأنوار] . ١١- [معارج القدس]

١٢- [المنقذ من الضلال] . ١٣- [فضائح الباطنية]

١٤- [المعارف العقلية] .

١٥- [المضنون به على غير أهله] .

١٦- [إلجام العوام عن علم الكلام] .

١٧- [جواهر القرآن] .

١٨- [ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل] .

١٩- [التبر المسبوك فى نصيحة الملوك] .

٢٠- [منهاج العابدين] . ٢١- [عقيدة أهل السنة]

٢٢- [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] .

وغيرها من الكتب والرسائل..

* * *